أمثلة من الترجمة

Anna Katharina Hahn
Das Kleid meiner Mutter

Suhrkamp Verlag, Berlin 2016
ISBN 978-3-518-42516-9

صفحات **51–80**

Anna Katharina Hahn
فستان أمي

ترجمة: نرمين شرقاوي

© 2016 Suhrkamp Verlag, Berlin / Arabic Translation: © 2016 Litrix.de

الأحد

استيقظت مع شروق الشمس، غارقة في عرقي، تكز أسناني على بعضها. لم أتمكن من معاودة النوم. جلست عند نافذة المطبخ مرتدية حمالة الصدر والسروال التحتي، وأشعلت سيجارة، ونفثت دخانها نحو الحوش بالأسفل. كانت كل النوافذ معتمة، وروائح السمك المقلي من آثار عشاء الليلة السابقة تفوح ممتزجة بروائح مسحوق غسيل الجارات المعلق على الحبال الممتدة في كل دور من طرفه إلى الطرف الآخر. نفذ دخاني ما بين المناديل وحمالات الصدر المتأرجحة. الحوش الداخلي عبارة عن مسقط عميق لا يُرى منه سوى الزجاج العكر لنوافذ المطابخ وبئر السلم. كانت هاويته السوداء تحدق في وجهي بالأعلى. ورغم أني قد لعبت فيه حين كنت طفلة صغيرة لعبتيّ نط الحبل والحجلة مرات لا نهائية، إلا أن رعدة سرت في بدني من تأثير قوة سحبه، لدرجة أني استشعرت اضطرارا عنيفا أن أنحني ثم أنحني نحو الأمام. في الأخير أجبرت نفسي على أن أصرف نظرتي عنه.

عادة ما يكون مطبخنا يوم الأحد مكانا حميما - عبق القهوة، موسيقى من الراديو، أحاديث. كانا والداي يستيقظان قبلي دائما، يتحادثان، يتشاجران أحيانا. لم أكن أنهض من فراشي قبل الظهر، أخطف آخر ساندويتش شوكولاته، فيما تضع ماما أمامي لوحا خشبيا عليه سكين، وحبات طماطم أو بصل، لأنه يتعيّن عليّ كامرأة أن أساعد في تحضير الغداء، بينما يقرأ بابا في غرفة المعيشة.

في هذا الصباح ساد صمت شنيع. طبعا واصلت الثلاجة زمجرتها، و تصايحت أسراب السنونو المعتادة فوق الأسطح بصرخاتها الحادة، وهدرت السيارات في الشارع، الذي لا يهدأ في هذه المدينة أبدا. في مكان ما صدح صوت رجالي بأغنية "لا رامونا". شعرت أني وحيدة، ولاحظت كيف أن فمي تشكلت زواياه ليبكي بطريقة طفولية، وفكرت إن لم يكن

من الأفضل حقا أن أتصل بِبَالوما، أو بشلة لابلاغا التي بالتاكيد تراكمت رسائلها النصية بالعشرات، أو ربما حتى أتصل بآنخيل الذي يمكن أن يأخذ من فوره أول طائرة إلى أسبانيا. لكن شئ ما داخلي جعلني أُحْجِم عن كل ذلك: مزيج من العناد والخوف والرجاء أن يكون يوم الأمس بكامله ببساطة لم يحدث. ربما كان كل شئ غير حقيقي. سأحرج نفسي وحسب. أنيتا نانيتا. سأصير مادة للتندر لعقود قادمة. إني لا أحلم كثيرا، وإن حدث تكون أحلامي مكثفة جدا. ولهذا كانت أمنيتي هذا الصباح أن أكون قد علقت في حلم جد مخيف، وأنه طال أكثر مما ينبغي، وأني سأخرج منه مفزوعة في وقت ما.

لا أعرف متى كانت آخر مرة جلست فيها في المطبخ في غسق ساعات الصباح الأولى. ربما في ذلك الصباح الذي رحل فيه آنخيل إلى ألمانيا. كان يشعر بالإهانة لأن أبي ظل يكيل له الاتهامات حتى اللحظات الأخيرة، ولم ينبس بكلمة بينما يتناول قهوته الممزوجة باللبن، وحين حملت ماما صحنا مليئا بشرائح الخبز المغطاة بمختلف الحشوات تحت أنفه، أزاحها بحركة غاضبة من يده أن تبتعد.

لقد سافر أخي آنخيل قبل بضعة أشهر إلى ألمانيا. كان قد حصل على درجة الدكتوراة بتقدير ممتاز من جامعة كومبلوتينزيه بمدريد. بعدها أراد أن يحصل على دبلوم في الترجمة الأدبية من جامعة أرانخويث لأنه لم يجد عملاً. لكنه قطع دراسته هذه بسرعة كبيرة. "الأيام الجميلة في أرانخويث انتهت الآن" قالها بعد ذلك. يَدّعى آنخيل أنه قدرته على القراءة بالألمانية أفضل من قدرته على الحديث أو الفهم، وأنه فيهما دون المستوى المثالي بكثير. لا أستطيع أن أحكم على ذلك، فتلك اللغة لم تثر اهتمامي أبدا. وأجد أن وقعها غير جميل بالمرة. لكن آنخيل صار منذ تلك الإجازة في دينيا معلقاً بكل شئ ألماني: الموسيقى والكتب والطعام خصوصا الخبز، الخبز الألماني، الذي يشتريه أحيانا من خباز في سالامانكا. وطبعا الفتيات. فهو يحتفظ بقائمة أسماء كل النساء الألمانيات اللواتي مارس معهن الحب. وهي مرتبة أبجديا وتبدأ بأندريا، باربارا، كريستا، دورا... لقد اشتكى من التكرار لأن ألمانيات حول سن الأربعين يُسمَّوْن زابينه أو تانيا. ولهذا أراد أن يغير المعايير التي تنظم الترتيب، بأن يكتب اسم مَواطِن نشأتهن بدلا من الاسم الأول: أنديرناخ،

بايرزبرون، سيلليه، دويزبورج. سألته ذات مرة ما الذي يجد في هؤلاء السائحات، وربات الأعمال، وفتيات "الأوبير"، والطالبات. إنهن سيدات فارعات الطول، وعادة ما يكن زائدات في الوزن، ذوات بشرات بيضاء، ويحملن حقائب الظهر، كما أنهن يخترن نمطا لثيابهن وكأنهن في نزهة أو في ملعب رياضي. إنهن يقدرن على استهلاك الكثير من الكحوليات، ودائما ما يُصَبن بحروق الشمس، ولا يستنكفن عن أن يستفرغن على مقتبسات لوبي دي فيغا المحفورة في أسفلت شارع كاييِّ دي لاز ويرداز.

تلعثم آنخيل وهو يقول "إنهن جد.. جد خضراوات. وكأنك تتقلبين على مرج مبتلٍ بالمطر. وحين يبدأن في الحديث أشعر أني أتقلب في ديوان من دواوين هولدرلين، أو جوته، أو تيك."

على أي حال تصرَف آنخيل بعد أن ظل فترة طويلة عاطلا بلا عمل، رغم حصوله على الدكتوراة، لم يقطعها سوى وظائف موسمية كمرشد سياحي بالمدينة، أو بائع آيس كريم، أو عامل تغليف في شركة أثاث، وحصل على تذكرة سفر إلى برلين. حتى في المطار كان بابا لا يزال يثير جلبة: "فقراء، لكننا مثيرون، هذه حالنا في مدريد! ارحل إلى شتوتجارت، فهناك ستجد الأموال! مرسيدس، بورش، صناعة السيارات، المُوردون، الخدمات، المتقاعدون، الأثرياء الذين يريدون تعلم الإسبانية، لينعموا بالوفاة على كوستا بلانكا، هناك عندك كل الإمكانات!"

لم تكن تذكرة السفر إلى مطار تيجل في برلين هي كل ما يحمل آنخيل في جيب سترته، وإنما أيضا رسالة إليكترونية مطبوعة من جامعة هومبولت، تفيد أنه للأسف ليس من المألوف في معهد الأدب الألماني دفع مقابل مالي للمدرسين الزائرين نظير إلقاء محاضراتهم، إلا أن الخبرة التعليمية التي سيكتسبها من خلال التدريس، تعتبر في كل الأحوال هي المكافأة المثالية نظير عمله، كما وأنه يسعدهم أن يوفروا له الغرفه 407 ليلقي فيها محاضراته عن جيرترود كولمار خلال الفصل الدراسي الصيفي 2012. ترجم لي آنخيل هذه الرسالة بينما كان أبواي يشتريان له للمرة الأخيرة ساندويتشاً بفواكه البحر، ورجاني أن أغلق فمي.

© 2016 Litrix.de

بدت الثلاجة كما لو كانت منهوبة. ثمة حبتان من الطماطم في طبق الفاكهة. أما دواليب المطبخ فلم تكن تحوي إلا أقل الخزين: بضعة معلبات، علب من الحباريات في حبرها الخاص، زيتون، بعض القهوة. ثمة 10 يورو في علبة البسكوت. في صباح كهذا لو كانت الدواليب على الأقل ملأى بالمؤونة لهدأ روعي قليلا. أما هذه الحال فقد أصابتني بالذعر. هرعت إلى الطرقة. فتشت جيوب جاكيت أبي. وجيوب معطف أمي الصيفي. في محفظة بابا الرفيعة وجدت حوالي 60 يورو. في المطبخ فتحت حقيبة أمي، ففاح عطر الياسمين النفاذ. وجدت في المحفظة 20 يورو والشريحة البلاستيكية الخاصة بعربة المشتريات في كارفور. ترى كم بقي في حساب البنك؟ لاحظت أن لا فكرة لدي البتة.

فجأة لم تعد تشغلني سوى فكرة واحدة. من أين سأعيش؟ كيف سأدفع أقساط الشقة؟ و ف. ف. التي تقف لنا كالغصة في الحلق مثلما كانت أمي تقول؟ كنا بالكاد نتمكن من تدبير أمورنا. ولولا أموال آنخيل التي يرسلها من ألمانيا لكنا طردنا منذ زمن. جالت بخاطري الحكايات الكثيرة التي سمعتها من الأصدقاء أو قرأتها على شبكات التواصل. حكاية خوان كارلوس. الأخبار كل ليلة. خطابات البنك العقاري ذات الشعار المبهرج ومطالباتها التي لا ترحم، تلك التي كان أبواي يضعانها على طاولة غرفة المعيشة، بكماء، لكن مهددة. بل إن خطابا جديدا وصل قبل عدة أيام. سقطت من يدي قطع عملات لزجة وتدحرجت على أرضية المطبخ. رفع آتييز رأسه ونظر في وجهي. هذه المرة تحدثت معه دون أن أفكر طويلا في حالتي العقلية: "أنت أيضا ستجوع. سوف يلقون بكلينا خارجا. ومنك سيطبخون شوربة."

وبينما كنت أعد لنفسي القهوة- احتياطا أعددتها خفيفة جدا - دق جرس باب الشقة، بصوت حاد، مُلِح. صحت وقفزت. تصلب آتييز في مكانه بعدما كان يتجول في المطبخ للمرة الأولى مخلفا آثاره أسفل الطاولة، بينما هرعت أنا نحو الباب، ثم توقفت في منتصف المسافة، فقد تذكرت أني لا أرتدي سوى ملابسي الداخلية، وكنت أنتفض كالمحمومة وأنا أفكر فيمن يا ترى يكون الطارق. وماذا يمكن أن أقول كي لا يلاحظ أحد أي شئ؟ لكن لم حقيقة؟ فأنا حقا لم أرتكب ما يسيء. لكني لم أكن أريد أن أفكر في المسألة التي حدثت في

غرفة النوم، التي قد تسفر عن هوس ما، أو هذيان. كنت في حاجة إلى وقت كي أنهي الموضوع مع ذاتي، وأن أوضح لنفسي إن كنت نائمة، وأعيش كابوسا، أو أني مستيقظة ويتعين عليّ أن أتصرف في عالم صار مجنونا.

في تلك الأثناء تحولت رنات الجرس إلى طرقات قارعة، بينما اخترق الباب صوت نسائي: "بلانكا! بلانكا! هل استيقظت؟". بمجرد أن سمعتها حتى أفلتت مني العبارة التي كانت تعلق بها أمي كل مرة على مثل تلك الإزعاجات: " فعلا هذه هي الذروة!"

أخذت فستان أمي المنزلي المعلق على مشجب الحمام، ثم لففت نفسي في ذلك الحرير الصناعي المنقوش بزهور ليلكية وصفراء وتوجهت نحو الباب. وقفت خيليبويّاس على ممسحة الأرجل وحدقت فيّ. ثم انطلقت في الثرثرة.

"بلانكا، أعلم أن اليوم هو الأحد، وأنه يوم للراحة، أيضا لمن هم مثلنا، غير المضطرين للخروج في الصباح الباكر. لكن ربة منزل ماهرة مثلك تستيقظ على كل حال مع أشعة الشمس الأولى. لذا فكرت أنه بإمكاني أن أمر عليك مرورا سريعا. فأنت دائما تبدين مهندمة، لكني فاجأتك هذا الصباح! في الحقيقة هذا لأنه لم يعد لدي ولا فتفوتة سكر واحدة في البيت. بلانكا لم يحدث هذا لي من قبل قط! فأول شئ كتبته على قائمة مشترواتي هو السكر. لأني كثيرا ما أخبز. وقهوتي لا أشربها دون ملعقتين، طافحتين، أتفهمين؟ مثل قمتيّ جبلين يكسوهما الثلج، مثل بينيالارا. وبعد كل هذا يأتي اليوم! حتى في الحرب، وراء أسوار الكاثار، كان باكو يتصرف ليحضر لي السكر. الحمر لم يتركونا في حالنا. كنا واقعين تحت رحمتهم تماما. وكنت أحضّر قهوتي الصباحية من الهندبا البرية- لكنها كانت حلوة، مسكرة وحلوة، مثل ضحكة أمنا العذراء، والفضل في ذلك لباكو باثيتو. رجل كهذا صعب أن تجدي مثله ثانية ..." كنت أهز رأسي وحسب وأوحيت بابتسامة رسمتها زاويتا فمي.

كلنا كنا نبغض سينيورا بيبوتا، ليس فقط لأنها فرانكوية لا أمل منها، ولا لأنها تدعي أنه من حسن حظها أنها نجت وهي فتاة صغيرة من الكاثار بتوليدو، لكن لأنها كانت أيضا فضولية مثل قطة و ثرثارة مريعة. حين كنا صغارا لا نزال، كنا نخشاها آنخيل وأنا، رغم

أنها كانت دائماً لطيفة معنا. لكنها تربي شاربا هو الأكبر بعد شارب فريدا كاهلو، وتستعمل ظلال جفون بنفسجية، تجعل عينيها تبدوان وكأنها خارجة من عركة. وكانت تحب أن تغتابنا من وراء ظهرينا أمام أبوينا. وكانت لا تثق في أبوينا بسبب موقفهما السياسي، الذي يشي به مظهرهما رغم أناقته. لم يكن يمر يوم لا ترن فيه جرس بابنا أو تطرقه أو تصيح من تحت عبر نافذة المطبخ. "إنها لا تستحي أن تنزع الفيوزات من مكانها فقط لكي ينحني والدك أمامها محاولا إصلاح تلفزيونها القديم". وبعد أن أضطر أبي في أحد أيام الجمعة أن ينظف لها ماسورة الصرف في المطبخ، فأتلف نتيجة ذلك واحدة من أفضل بدلاته، صار يطلق على السيدة بيبوتا داخل أسرتنا اسم خيليبويّاس أي الخرقاء. حتى أمنا الرقيقة انحازت له في تلك الغلظة.

خيليبويّاس الخرقاء تشكل خطورة. ستسأل عن والدَيّ. ستريد أن تدخل، ثم ستلاحظ أني تحت تأثير مخدر ما، لا أعرف ما هو حتى الآن، ولا كيف دخل إلى جسدي، أو لعلّي فقط لا زلت نائمة. ولهذا فعلت ما هو مطلوب مني. ظللت أهز رأسي مثل البلهاء، وأعطيتها إشارات أني أصغي لما تقول، انزويت بخفة إلى الطرقة، ثم في المطبخ أخذت علبة السكر من الخزانة وملأت نصف فنجان. حين عدت بها إلى الخرقاء خيليبويّاس وجدتها استغلت الفرصة في تلك الأثناء ودخلت. لقد وقفت فعلا أمام مرآة دولاب المدخل وأزاحت بقدمها حذائي الرياضي الخفيف جانبا.

"بلانكا، أنيتا مزاجها ناري، أليس كذلك؟ أذكرها منذ كانت طفلة صغيرة وهي تقذف بأحذيتها على الحائط. وبالأمس أيضا صفقت الأبواب وهي تدخل البيت ..." وضعت لها الفنجان في يدها وزحزحتها إلى الباب خارجا. "هل هذا يكفي؟ سألتها بما يشبه نعيق الغراب. "بلانكا عزيزتي، هذا كثير بحق، ملعقتان صغيرتان كانتا لتكفياني. لم أعد في حاجة إلى المزيد في سني. أنت نفسك ستلاحظين هذا عليك، رغم أنك تبدين أصغر، حتى بدون المكياج الكامل. فليهنأ أوسكار." ولحسن الحظ أنها قهقهت. وبهذا لم تسمعني وأنا أتأوّه استنكارا.

© 2016 Litrix.de

لكن هل يمكن تصديق ما حدث، لقد ظننت أني ماما! هل نسيت أن تضع نظارتها؟ لكن الخرقاء لها عينا نسر، وعادة ما تلاحظ أصغر كِسرة على السجادة. من الممكن أنها صارت تخرف. عموما هذا في مصلحتي. أغلقت الباب بإحكام ونظرت في المرآة المعلقة في الطرقة. أنا. آنا ماريا مارتينيز مادروغادا. آنيتا نانيتا. أنيتا. في فستان أمي بلانكا. الذي لم أزرره بشكل صحيح فبدا منحرفا. شعر منكوش في كل الاتجاهات. أمي كانت تجدل ضفيرتها قبل النوم. شعرها أطول كثيرا من شعري. كان يكاد يصل إلى وركيها. أنا أطول منها. أرفع. أكثر شحوبا. بدون مكياج. ذات عينين مكدودتين. ولست في نصف جمالها. الكل يقول إني نسخة من وجه أبي. هذا يعد لأي فتاة، حتى مع أب في غاية الوسامة، بمثابة قبلة الموت. ربما لهذا السبب لم تستطع أمي التوقف عن ترديد الأمر دائما. فأمي أسمن مني قليلا. لكنها ليست ممتلئة بالدهون. وهي من اللواتي يستطعن ارتداء فستان بفتحة ديكولتيه عميقة. "هي امرأة، أنت فتاة" كان أبي يقول. ولم أكن أجد في ذلك إطراء. لاحظت أني صرت غاضبة من والدَيّ، وهذا الغضب غير مريح، خصوصا لأني لا زلت غير متأكدة مما حدث لهما بعد.

إن ما رأته خيليبويّاس لا يمكن أن يكون صحيحا. إنها في نهاية الأمر مجرد عجوز خرفة، طار عقلها، ولم تعد تلاحظ من كثرة ثرثرتها مع من تتحدث. كل هذا هراء!

مددت ذراعي وصفعت وجهي. نظرت لي صورتي في المرآة نظرات كلها لوم. ترك كفي أثرا ذا لون وردي خفيف على خدي الأيسر. أما عيناي البنيتان الناعستان فكانتا مغرورقتين بالدموع. لقد كنت مستيقظة. ليس في ذلك شك.

في حجرة النوم أسفل النافذة وضعت أمي صندوقا كانت تخفي فيه علبة حليّها، وبعض العملات الذهبية التي أهديت لنا في التعميد والمناولة، وكذلك ألبومات الصور. ربما أيضا بعض المال. أي شئ له قيمة. أي شئ يمكن أن يهدئ من روعي، على الأقل مؤقتا. أي شئ يساعدني على ألا أنظر في المرآة، وأن أضع يدي على مقبض باب حجرة النوم- وأن أظل واقفة وكأني تحجّرت.

لو دخلت إليها الآن فماذا سأجد في انتظاري؟ والديّ اللذين لا يزالان نائمين، مثل أي يوم أحد طبيعي في السادسة صباحا؟ والدي في أثناء ارتدائهما ملابسهما؟ والدي يمارسان الحب تحت الأغطية؟ لم يسبق لي أبدا أن رأيتهما في ذلك الوضع. أم المتوفيين الذين وجدتهما عصر أمس؟ هل قمت حقا بإلباسهما أفضل ثيابهما؟

دخلت إلى الغرفة بعينين مغمضتين، ووجنة ملتهبة. سددت أنفي، لأني خشيت أن أشم عفونة الجثث فأفقد صوابي، مثل كل البطلات الصارخات في أفلام الرعب، التي رأيتها بكثافة في فراش خوان كارلوس الضيق، تمسك يدي بزجاجة بيرة "ماهو" على بطني العاري بينما تتخلل أصابعه القصيرة الثخينة خصلات شعري برفق.

طبعا لم تكن الرائحة في الغرفة هي رائحة التعفن. شممت فقط رائحة أسفلت رطب، تلك التي يخلفها تنظيف الشوارع ليلا، ورائحة برودة الصباح التي نستطيع أن نخمن منها درجة الحرارة التي سيصل إليها النهار لاحقا. كان والدي هناك حقا. جالسين على المقعدين بجوار النافذة. كانت البدلة والفستان فضفاضين على أطرافهما. اختفت يدا أبي في سواري القميص. ولم يبرز من تنورة أمي المنقوشة سوى مقدمة حذائها المدبب، ليس مثل الأمس، حيث كانت ركبتها ظاهرة. أما أقدامهما فلم تلمس الأرض. كان كل ما يخصهما أصغر حجما وكأنه انكمش في الليل. راقبتهما من الباب، خاطبتهما، لكنهما لا يزالان ميتين كما بالأمس. وكما بالأمس علاهما ذلك المظهر الأنيق النظيف وكأنها اصطناعيان، وكأنهما تمثالان من متحف الشمع. وعلى وجهيهما، بتلك العيون التي أغلقها النوم الذي لن يتمكنا من الاستيقاظ منه، لم أجد ولا تجعيدة واحدة، ولا بقعة، فقط تلك الابتسامة الراضية التي لا يؤرقها شئ، التي رأيتها بالأمس. لم يعد الاثنان يشبهان أوسكار وبلانكا. كنت أستطيع فقط أن أخمن أنهما والدي، لكن من يجلس هنا حقا هما شابان يافعان. لوهلة فكرت في نفسي وفي آنخيل. لا بد أننا كنا نبدو على ذلك النحو سابقا حين كنا نرتدي قطع الثياب التي خلعها والدانا ثم نلعب لعبة العائلة بناء على طلبي، وبعدها بخمس دقائق بعد أن أكون قد بدأت في ترتيب الشقة، نلعب عسكر وحرامية، كما كان آنخيل يخطط من البداية.

لولا الخاتم لكنت أغلقت الباب ثانية، لأني لم أجرؤ على الدخول. لكن لحظتها وقع شئ على الأرض، له رنة تشرح القلب مثل الشمس، وتدحرج على الباركيه صوبي، مكللا ببريق زاخر، بمنتهى الثقة وكأنه يعرف قيمته الحقيقية بدقة بالغة. لقد كان خاتم زواج أمي، من الذهب الأصفر، ثقيلا ومقببا ذا إطارين مجدولين، خاتما غنيا ومفرط البهرجة لزواج متأخر كهذا. لقد اكتفى أبي بتقديم خاتم أمه من فرط التعلق بها رغم تقشر سطحه. وطلب صنع ماسة مبهرجة لبلانكا. لا بد أنه في هذه اللحظة انزلق من الإصبع الذي انكمش. وتدحرج على الأرض حتى وصل إليّ. لا بأس. انحنيت لأرفعه. هل ألبسه؟ أم أبيعه في "كومبرو أورو"؟ صرخت في الاثنين الجالسين عند النافذة "ماذا عساني أن أفعل؟"، ثم نظرت بعدها إلى الأرض شاعرة بالخجل. بعد قليل وضعت الخاتم في إصبعي، في سبابة اليد اليمنى، لأني خمنت أنه لن يناسب سوى هذا الأصبع، أكثر أصابعي اكتنازا. غلط. ضيق جدا. لم يرض الذهب إلا أن يدخل في البنصر مُتوِجا له ببريقه وكأنه ينتمي لهذا الموضع منذ زمن.

لقد فهمت أن الخاتم رسالة مفادها أني على الأقل مسموح لي بالدخول. في البداية رتبت السرير، ضربت المخدات لتنتفش كما أفعل في غرفتي، منذ أن عرفت أني لن أجد عملا - مثل ضحية يؤرقها تأنيب الضمير. آنيتا نانيتا، شريكتنا في السكن، المرتبة. الآن أستعرض هذه الموهبة؛ حتى أصل إلى الصندوق بلا عقاب. ربما كان سلوكي صباح هذا الأحد يدعو للتساؤل. لم يكن في نيتي سوى أن أرتب بعض البياضات، وأن آخذ من الصندوق علبة حليّ ماما وملفا أسودا بدت عليه الأهمية. على عجل غادرت غرفة النوم مرة أخرى، دون أن ألتفت ورائي. أرتدى الخاتم في إصبعي وكأنه يجعلني غير مرئية، مثلما انسل بيلبو من كهف أورك في فيلم الهوبيت.

ماذا يفعل الآخرون حين يصيبهم ما أصابني؟ لم يكن لدي خبرة مع الموت. لقد دفن ماما وبابا العمات والجدات لأبي قبل أن أولد بفترة طويلة. ما الذي يحدث لي هنا؟

عدت إلى الغرفة الوحيدة، التي لا تزال تعطي شعورا بالسكن - المطبخ. على الأقل هنا اخترقت أصوات الجيران من النافذة، وهنا كان آتييز يلف ويدور. قطعت له حبة الطماطم

قبل الأخيرة. فبدأ يلتهمها بتلذذ. بينما تبرق قوقعته المزركشة. رفعت يدي متباهية وقلت له "انظر، أنا أيضا صار عندي شئ ثمين بحق."

فجأة دوّت الغرفة كلها. امتلأ الصمت بأصوات، الصمت الذي لم يكن يسمع فيه شئ سوى صوتي، وبعض قرقعات من السلحفاة. سُمعت دقتان الواحدة مباشرة بعد الأخرى. قد يبدو الأمر لا يصدق، لكن لعله مقبول لواحدة في مثل موقفي أن لا تدرك على الفور أن هذه رنات تليفون محمول تشير إلى وصول رسالة نصية. كان تليفون ماما مستلقيا على طاولة المطبخ، حيث تركته صباح الأمس إلى جوار حقيبة يدها وميدالية المفاتيح. تذبذب الكلب الفضي. وأضاءت الشاشة بلون أخضر مظهرة رقما وظرفا بريديا صغير الحجم. ربما بالوما؟ تناولته بحركة آلية، كان دافئا وأثقل وزنا من هاتفي. أما الزر الذي يستدعي القائمة فلكأنه نُقر من تلقاء نفسه.

نجمتى الأجمل، أنا أفتقدك. هل تستطيعين أن تلاقيني يوم الأربعاء؟ أريد أن أضع وجهي بين يديك وأن أسمع صوتك. الساعة الخامسة تحت الساعة؟ أحبك كثيرا. ر.

جلست ووضعت المحمول على القرص الخشبي. كانت الرسالة مكتوبة بالأسبانية عدا الجملة الأخيرة: "أحبك كثيرا" واحدة من الجمل القليلة التي أفهمها من الألمانية. مثلها مثل "مقعدة"، "خراء" "اغرب عن وجهي" و "في صحتك"، وهي البعض الذي علمني إياه آنخيل كلما ازداد غرقا في مستنقع تلك اللغة الفظة. ما هذا؟ من كتب هذه الرسالة؟ كان إبريق القهوة يفور فوق الموقد، إذ كنت رفعت حرارة النار، فأحاط اللهب الأزرق المصفر مؤخرته الفضية بتاج من لهب، بينما تدافع البخار من البوز. لم يكن للقهوة طعم، ولسعت لساني، وأخذت مرة أخرى محمول أمي، الذي انطفأت شاشته ثانية.

لا اسم، فقط رقم. هذا واحد من مراوغات ماما المعتادة. فهي تستعمل فهرست عناوين ورقي، بدلا من أن تخزن أسماء معارفها على المحمول. كما أنها كانت تحفظ الكثير من الأرقام. فتشت في حقيبتها- التي على عكس حقيبتي- يسود فيها النظام على نحو نموذجي. هنا مكان السجائر:3 سيجارات، في محفظة فضية، بينما الولاعة في المتناول إلى جوارها،

أحمر شفاه، بودرة خدود، باكو نعناع، كل الأشياء مصففة كالجنود في الجيوب الجانبية. وفي القاع ربض فهرست العناوين. حاولت أصابعي بمهارة مفتقدة أن تقلب الوريقات الصغيرة. الأسماء قليلة جدا: بالوما، أنخيل، أنيتا، أوسكار، أطباء متنوعون كنت أعرفهم كلهم، بعض صديقات المدرسة القدامى، زملاء قدامى من أيام التياترو الأسباني، ولا رجل واحد. الرقم الذي أرسلت منه الرسالة النصية تحت حرف ر بدون أي إضافة. وعلى عكس المدخلات الأخرى كان مدونا بالقلم الرصاص، وكأن أمي كانت مهتمة أن تتمكن من مسح هذا الأثر في أي وقت. رامون، رودريغو، روبين؟ من يكون يا ترى؟

لقد كنت غاضبة، أقول هذا بصدق. غاضبة لدرجة أني نسيت لوهلة أن ماما ماتت. الغضب والإحباط كبتا أي شعور آخر. قلبت حقيبة اليد دون أن ألاحظ الورقة فئة الخمسة يورو التي طارت. من أعطاها الحق في ذلك؟ من كانت تظن نفسها؟ لقد ناهزت الستين من العمر! دوالي في الساقين. تجاعيد حول الفم والعينين، شعرها أسود مزرق بدلا عن البني مثل شعري، تصبغه بنفسها منذ ما أستطيع أن أتذكر. أمي التي كانت تحمر خجلا حين ترى حبيبان يقبلان بعضهما في التلفزيون. أمي التي تتجمد وتنظر أمامها في الشارع حين يدير الرجال رؤوسهم محدقين فيها. حتى وأنا أمشي إلى جوارها. هي التي لقد كانت تحصد الإعجاب لا أنا، لاحظت ذلك منذ مراهقتي. حتى عشاقي كانوا مفتونين بها. عينا خوان كارلوس الفولاذيتان! أما هي؟ بدت بريئة، بل تكاد تشعر بالإهانة. أبدا لم يذكر أي اسم آخر غير أوسكار. أوسكارثيتو. كانت تطلق عليه "آربوريتو" تيمنا بشجيرة في كتاب غبي لا أذكره، أما هو فيدللها "بروخيتا"، الساحرة. أمر محرج. كنا نضطر أنخيل وأنا أن نشيح بوجهنا كلما اضطررنا لسماع ذلك. والآن هذا! ر.، ذاك الذي يريد أن يقابلها تحت الساعة.

تحت الساعة؟ لا بد أنه يقصد برج الساعة في ميدان بويرتا ديل سول. يال السحر. فقر مدقع في الخيال. ليس في مدريد بأسرها مكان أكثر عادية كنقطة اللقاء تلك. حاولت أن أتخيل هذا الرجل الذي ربما يقف في زحام القصر منتظرا أمي، ربما ينقّل ثقل جسده من قدم لأخرى، داسا يديه في جيوب بنطاله، يتمشى هنا وهناك بنفاد صبر، لأنها عادة ما تأتي متأخرة قليلا. لم أنجح في ذلك. كانت الصور التي ألحت عليّ مرعبة وتثير النفور. أعدت

دس كل متعلقاتها في الحقيبة شاعرة بالخزي، وأغلقت السوستة وأعدت وضع الحقيبة على الطاولة. حيث ميدالية المفاتيح. ظهرت بعض الخدوش القليلة على سطح الكلب الفضي المعلق فيها. لكنه ظل يلمع ببريق سخي. أخذته بحذر بين يدي. كان باردا. منذ متى وهي تحتفظ به؟ بمجرد أن لمسته وتصاعدت إلى أنفي روائح المعدن الممتزج بالعرق، رأيت نفسي أعود طفلة صغيرة تصل جواربها حتى الركبة، ترتدي جونلة كاروهات، قميص المدرسة الأبيض، وشعر مهوش وملاقط شعر غير مثبتة بإحكام، فتاة في الثامنة أو التاسعة، تفتح الباب وهي مبهورة الأنفاس، تقتحم الشقة، تنزع الحقيبة المدرسية عن أكتافها، وتنادي على أمها وهي لا تزال في الطرقة. في هذا اليوم لم أتلق ردا من أحد، الأمر الذي دفعني أن أنادي مرة أخرى بصوت أعلى. ركضت داخل كل الغرف وفي كل مرة أسير أبطأ خطواتي وينخفض صوتي.

جلست الأم في غرفة النوم على السرير المرتب. لم أتوقع أن أجدها هناك أبدا خلال النهار. غير أنها جلست هناك، في واحد من الفساتين التي ترتديها أيام الآحاد. الأخضر الداكن المنقط بلون مثل القشدة مع حذاء مناسب، وحقيبة يد لامعة. كان فمها يلمع بالأحمر، وكانت تلعب بشئ ذي بريق. لا، بل كانت تمسده باستمرار بين إصبعيها، بنعومة واستغراق. كان شئ فضي يبدو كلعبة. "ماما، ماما، إنه كلب! ياه، أليس لطيفا! إنه لي يا ماما أم ماذا؟ أنت اشتريته من أجلي!" سمحت لي أن أمسك الكلب الفضي، وأن أمسده، أن أتأمله، أن أتجول به، لكن بعد قليل أخذته من يدي وهي تهز رأسها يمينا ويسارا "أنيتا، لقد جعلته لزجا تماما. من فضلك اغسلي أصابعك!" اختفى الكلب، وأعرف أني شعرت بالإهانة. وحين كانت أمي توصد الباب بعدها بعدة أيام، من أجل أن تأتي للتسوق معي، رأيته مرة أخرى. يتراقص في ميدالية مفاتيحها، لكنه اختفى بنفس السرعة التي ظهر بها. دسته في حقيبة يدها، قبل أن اسأل وسحبتني في يدها.

الآن أقف في المطبخ، أقبض على ميدالية المفاتيح، متشنجة ومحبطة، بعينين مغرورقتين بالدموع. ما فعلتُه بعدها حدث دون تفكير مليّ. أخذت التليفون، فتحت رسالة ر، اخترت خيار: "رد". لم أكن معتادة على النقر على هذه المفاتيح المهترئة.

بعد أن ضغطتُ على "إرسال"، أعدت التليفون إلى الطاولة وكأنه مسموم. قبل أن أغادر المطبخ، أخرجت آخر زجاجة نبيذ من الثلاجة. في الطرقة قابلت آتييز. نظرنا طويلا في عيون بعضنا البعض، بعدها عدت إلى غرفتي وصفقت الباب في وجهه.

حينما استجمعت شجاعتي للخروج من جديد، كنت ثملة بعض الشئ. ثملة بما يكفي كي أجازف بالدخول إلى غرفة النوم ثانية، لكن دون اهتمام بإلقاء أي نظرة على الاثنين الجالسين عند النافذة. فتحت الدولاب، قلبت ما بين التنورات والفساتين والقمصان والبدل وكأني أقلب ألبوم صور عملاق. وكنت أبكي. أعمتني الدموع. خرجت مرة أخرى. مترنحة حتى الحمام أحمل فستانا على ذراعي.

شعرت بالغثيان. بنهم شربت ماءا من الصنبور مباشرة، ساخنا، مليئا بالكلور، عطنا. أطلق تلفوني زفرة خفيفة ضائعة. وانتفض وتحرك نحوي على سطح طاولة الغسيل التي قد وضعته عليها، وكأنه حيوان يبحث عن مأوى. تلونت الشاشة باللون الذهبي، بدا مثل عين مفتوحة عن آخرها، عين محل ثقة، ثم رأيت رسالة لاورا التي وصلت للتو. أما الرسائل الأخرى، التي يفوق عددها المئة، وكلها من لا بلاغا، فلم ألتفت إليها.

> أنيتا، لم نسمع أي خبر منك منذ زمن. هل لا زلت على قيد الحياة؟ أرجوك تواصلي معي، لقد قلقت عليك! كل شئ هنا موحش نوعا ما. البيت انتهى. كلهم سكارى. ودايفيد تغوط في المسبح. افرحي أنك لم تحضري، الوضع مخزي بحق!

أخذت الجهاز في يدي. كان ظهره ساخنا. مسحت وجهه بنعومة، كي أرد. زمر وغرد كثيرا. منذ أن اكتشفت ما اكتشفت في غرفة النوم وأنا أتجاهله كما لم أفعل من قبل قط. بم أرد؟ لا أستطيع أن أخبرهم بالحقيقة، رغم أن وجع الحنين إلى العصابة كلها يكاد يقرص معدتي. غير أني كتبت بضعة كلمات مقتضبة:

> حدث شئ. رجل، حلم. سوف أسافر معه. المزيد لاحقا. قبلات للجميع!

كان للكلمات وقع ميلودرامي رهيب، وعرفت أني بمجرد أن أرسلها، فإن لاورا ستقرأها بصوت عال بينما يتحلق حولها الآخرون، منحنين على هاتفها الذكي، مطلقين تكهنات من كل شكل ولون.

سحبت نفسي من أمام مرآة الحمام، وعلقت الفستان ثانية على المشجب، وبدأت أتأمل بهدوء الأشياء التي أحضرتها من غرفة النوم. كان مجرد جزء: فستان ماما الأزرق ذي التنورة الهفهافة، التي تبدو فيه – كما يقول بابا- "مثل زهرة جرس مقلوبة". انزلق القماش الرقيق على جسدي المتعرق بلا عناء. وكذلك التف الحزام الأحمر الرفيع اللامع مثل حيّة ذكية خلال عراوي الخصر، وبدا وكأن الأزرار والكُبشة تقفل من تلقاء نفسها. أخيرا صففت شعري إلى الخلف. كان مبللا ودبقا مثل أنيتا كلها. عقصت ذيل الحصان الرفيع في حلقة ضخمة مثل تلك التي كانت تصنعها أمي يوميا على رأسها من الخلف. حين كنت لا أزال طفلة، كنت أدخل أصابعي فيها، لأني لم أستطع أن أصدق أن هذا العش مجدول فقط من شعر طبيعي. كنت أظنه محشوا بشئ ما، غير أني كنت ألمس دائما الخصلات الناعمة الدافئة المضفرة بعضها بالبعض، وأشم رائحة الكحول المنبعثة من "رذاذ الشعر" الذي يحوي مسحة كحول ليثبّت التسريحة. الكحكة متماسكة. لكني أحكمت تثبيتها بملاقط معدنية صغيرة. أخذت الأقراط اللؤلؤية والعقد الطويل من العلبة البورسيلان ووضعت زينتي. حككت خاتم الزواج ليلمع، ورششت عطر الياسمين على رقبتي ويدي، حتى شعرت بخدر شامل. استعملت أدوات الزينة بنفس الثقة التي أستعمل بها أدواتي، التي هي أيضا رخيصة، لكنها ليست منظمة ونظيفة مثل هذه. كحل أسود، ماسكارا، خط على الجفن عُدت عليه عدة مرات إلى أن اتخذ الثخانة المناسبة. أحمر شفاه له طعم الشمام. طبعة شفتاي على ورقة كلينيكس مثل الفراشة. وأخيرا وبقلم الحواجب رسمت بقعة في منتصف الوجنة اليمنى، كانت ماما تسميه طبعا خال الحسن. ولأول مرة في حياتي يسعدني أن يكون لي شامة في نفس هذا المكان. مرتفعة بعض الشئ وذات لون بني وحجم مثالي.

لم أتأمل نفسي في المرآة إلا بعد أن انتهيت تماما. إذ كنت أركز العمل أولا على مناطق متفرقة دون أن أنظر إلى التأثير الكلي. لم أستطع أن أحرر عيني من الصورة التي كانت

تطالعني في ذلك الضوء الأصفر الشاحب لغرفة الحمام التي بلا نافذة- كانت مقنعة، وتكاد تكون أجمل من ذلك الوجه الذي أحاول تقليد شكله، أكثر شبابا، أكثر نعومة، وعلى نحو مخيف أكثر استمرارية.

فقط في مرآة الطرقة رأيت نفسي بالكامل، بالحذاء الأحمر الذي وجدته تحت الدولاب إلى جوار حذاء أبي الأسود. علِقت بقع تراب بذيل المعطف الكريمي الحرير فبدت مثل غيمات رمادية. هززته لأنفض التراب. وجدت باقة زهور صغيرة لعلها من الحديقة النباتية. تناولتها بحذر بالغ فقد كانت قد جفت تماما. ثم في جيب المعطف وجدت عملة بقيمة 2 يورو. أسعدني هذا لأني كنت أريد شراء بعض الخس لآتييز.

وحين وصلت إلى المطبخ لأحضر حقيبة اليد والمفاتيح، مترنحة فوق الكعب العالي الذي لم أعتده، وجدت رسالة جديدة في انتظار بلانكا.

لماذا لا تقولين لي أنك تحبيني؟ ر.

لم أكتب لأحد من قبل قط أني أحبه. لا خوان كارلوس، ولا دافيد، ولا حتى أليخاندرو من ف. ف.، الذي تبادلت معه أول قبلة فرنسية وعمري 13 سنة. لا أحد غير أبي. لقد تجاهلت المسألة. ببساطة كان الأمر دائما ليبدو غير حقيقي، ومبتذل، وكأن عليّ أن أقلد مشهدا رأيته في التلفزيون. في جزء من الثانية كتبت رسالة على المحمول القديم ثم أرسلتها:

أحبك. بلانكا

لم أجد ما أستطيع أن أعوّل عليه في علبة الحلي. فليس ثمة شئ سوى 4 عملات ذهبية، وساعة جيب بابا المذهبة، لكنها لم تبدو ذات قيمة خاصة. دسست الكراكيب في ظرف بريدي مع خاتمين وأسورتين وأزرار الأساور. ثم شربت بعض الحليب وتأملت حافة الكوب الذي تركت عليه شفتاي أثرا أحمرا سميكا. أومأت برأسي محيية آتييز وغادرت الشقة.

© 2016 Litrix.de

**

حيتني بيلار عاملة الخزينة في كارفور بقبلة على وجنتي وهي تظن أني بلانكا، حين وقفت أمامها ومعي خس، وخبز توست، وزجاجة بيرة ماهو. أخبرتني بوجه مشرق أن بواكير محصول البرتقال قد أهلت من إشبيلية، وسألتني إن كنت أرغب في بعضها، حيث أني كنت اسأل عنها باستمرار؟

كانت أمي مجنونة برتقال، رغم أن مذاقه لا يطيب حقا إلا في الشتاء. كانت بيلار تعرف ذلك لأن أمي كانت تذهب يوميا إلى السوبرماركت، منذ أن أغلق البقال في شارع سان بيدرو. وهكذا غادرت كارفور ومعي 3 برتقالات، وبقية المشتريات.

ناداني ميغل من مقهى الناصية، وغمز لي مرسلا تحياته إلى أوسكار وأنيتا الصغيرة. غربت الشمس، وتلونت سماء مدريد بلون وردي ملوث، سرعان ما دكنت درجته، وأنا أواصل المشي، بثقة تزداد تدريجيا، وبكبرياء أمي التي تسير رافعة ذقنها. رأيت أناسا في كل مكان، مستعدين للخروج، ظل هذا حالهم رغم الأزمة. أرادوا على الأقل في المساء أن يقفوا خارج أبواب منازلهم، أن تتيه نفوسهم في صخب المدينة، أن يستشعروا دفء نسمات الليل على وجوههم في الشرفات، محاطين بالأضواء والأصوات التي تشتتهم عن تذكر كل السوء الذي وقع في النهار.

طاب لي الشعور أني أمي. كنت جميلة على نحو لم يسبق لي أن عرفته. الشباب الذي يطلق صفاراته وراء كل سيدة جميلة، لم يكن هذا بأمر ذي بال. شورتات قصيرة، تنورات ملونة متناهية القصر، شعر منسدل- تنهال الصيحات دون أن تكون المرأة منا معنية بشكل شخصي. إنهم يفعلون ذلك مثل رد فعل لا إرادي، إنهم ليسوا مبتهجين بصدق. غير أن ما بدأ مع خطواتي الأولى في أكثر شارع ألفته في مدريد كان أمرا يقارب السحر. بلانكا لم تكن تشجع أي تصفير أو صيحات عربدة. وإنما كان الرجال يقفون صامتين متابعين إياها بنظراتهم المفتونة. بل إني كنت ألمح بريقا خاصا في وجوه النساء، خصوصا حديثات السن جدا أو الكبيرات جدا. أيضا جارانا المتقاعدَيْن في المنزل المقابل روزا وخواكين خرجا من منزلهما وتحدثا معي على أني بلانكا. سألاني عن أحوال زوجي وأولادي ولماذا لم نسافر

في هذا الحر إلى السييرا. أجابت بلانكا أن أنيتا لا تشعر أنها بخير. وأنها لا تستطيع أن تترك ابنتها وتسافر. ثم انهمك ثلاثتنا لبعض الوقت في لعن الزمن السئ القاسي خصوصا على الشباب. وبعدها صعدت عائدة إلى الدور الرابع.

نام آتييز خلف الأريكة في غرفة المعيشة، مشكلا كومة داكنة في الظل. أبعدت كومته، وعملت جلبة حرصت أن تكون عالية بقدر الإمكان، فالصمت كان فوق الاحتمال. لكنه لم ينزعج، ولعله خمن حتى وهو نائم، أني لا أشكل خطرا يهدده. وبينما كنت أغسل الخس وأصنع لنفسي ساندويتش استمعت إلى بعض الأغاني المسجلة على الهاتف الذكي، لكني ضجرت سريعا من قائمة الأغاني. دعكت البرتقال بمنشفة رطبة كما كانت أمي تفعل دائما قبل أن أضعها في سلة الفواكه.

لا يمكن لبلانكا أن تجلس على طاولة المطبخ مرتدية فستان الأحد لتقشر البرتقال. ولأن شهيتي تحركت فجأة للفاكهة، ربطت مريلتها حول خصري. ساعتها وجدت منديل مطبخ مكرمش في جيب المريلة، كان يحمل رائحة أمي، فبدأت في النشيج.

فجأة دوى التليفون في الطرقة لدرجة أن المنديل سقط من يدي وكدت أتعثر في قدمي، وصدمت رأسي بحلق الباب من الترنح. وهناك انتظرتُ أمام الجهاز بعينين مغلقتين كي يتوقف الصليل. في الأخير لم أتحمل الانتظار حتى النهاية ورفعت السماعة. لقد كان آنخيل. "اللعنة، أين كنتم جميعا؟ لماذا لا يأتي أحدكم للرد على التلفون" "كنت في الحمام" قلت له بصوت يشبه الفحيح وجاهدت أن تخرج مني نبرة الأخت المشاكسة التي يعرفها. "هل أستطيع التحدث إلى ماما؟" "لا يزالان في ف. ف." سكت آنخيل وتنفس عميقا. شعرت كم كان مهموما لدرجة أنه غضب مني، وكان يفضل أن يتحدث مع أمي. "ماذا بك؟" سألته. "لماذا لم تسافري معهم؟ لا بد أن الأجواء في المدينة لا تطاق" "لم تكن بي رغبة. كل مرة نفس الشئ. لابد أن يكتب بابا مراجعة كتاب ما. بالوما تزور ماما، يريدان أن يصبغا شعرهما." زفر آنخيل بتفهم. واصلت الثرثرة. "كما أن الجيران احتاجوا إلى جليسة أطفال . ذهبت لرعاية دانيل بالأمس بعد الظهر واليوم في الصباح الباكر. إنه حقا ولد لطيف. مقابل ذلك ستعطيني إيزابيل فستانا صغر عليها بعد أن زادت جدا في الوزن. وبعد ذلك سنخرج.

"من سيخرج؟" "العادي، لابلاغا وأنا". سمعت كيف أن أخي الذي في ألمانيا يكتم تثاؤبه. "إلى أين؟" "يعني، فقط سنخرج، لا شئ مخصوص. يوجد في ويراتس الآن بار يقدم قائمة طعام مناسبة للأزمة. كل شئ مقابل 3 يورو. هل معك 3 يورو؟" كنت أتحدث الآن بصوت مرتفع مزقزق. ضحك آنخيل بتحفظ، نصف مستمتع، نصف ثائر. "أنت كما أنت، أنيتا نانيتا" قال "عندي أكثر من 3 يورو هذا ما أستطيع أن أقوله لك. غدا أرسل لكم بعض المال، اشتري لنفسك كيلو لبان" رفعت صوتي المغرد "شكرا آنخيليتو، حياتي، سمائي، شجرتي!" ازدرد ريقه. لاحظت أنه أخيرا ضحك. "توقفي يا أنيتا نانيتا. الألمان يظلون جالسين في نفس الحانة طول الليل. إنها بلد غريبة. قبلي ماما وبابا نيابة عني". لم يقل لي أخي في هذا المساء ما الذي يثقل قلبه. لن أعرف بالأمر إلا لاحقا. ثم غمغم بشيئ لم أسمعه ووضع السماعة.

لم أستطع أن أحكي له عن الأمور التي وقعت هنا. رغم ذلك فهو لا يزال آنخيل، أخي الذي أتفاهم معه عميانيا، رغم أنه ليست لنا اهتمامات مشتركة كثيرة، خصوصا أنه مجنون قراءة وأشياء أخرى. كثيرا ما ألح عليّ أن أتعلم الألمانية لأهاجر مثله. وكان يحمل هذا الأمر محمل الجد. إنه يعتقد، أن ليس لنا أي مستقبل في إسبانيا. بعد المحادثة الهاتفية شعرت بشعور سئ: لأني كذبت على آنخيل، ولأني لاحظت أنه يكتم عني أمرا، ولأني ببساطة وجدتها مسألة مخيفة أن أبقى لوحدي في الشقة المظلمة، فقط بصحبة سلحفاة. على الأقل كان يمكن لي أن أتحدث مع أخي عن آتييز.

أخرجت هاتف أمي من حقيبة اليد، لأتأكد إن كانت رسائل ر. هي رسائل حقيقية فعلا، وإن كنت قد أرسلت حقا ردا على هذا الشبح. إلا أن الشاشة لم تظهر سوى أن "البطارية ضعيفة". أوصلت الجهاز ليشحن في أقرب مقبس، وحاولت أن أفتح الرسائل النصية. لكن إما أني كنت في منتهى الغباء، أو أن هذا الشئ لا يستطيع أن ينجز مهمتين في وقت واحد.

بدوت لنفسي فجأة حمقاء. كان فستان أمي يصل لحد ركبتي، وعند الوركين يصنع كسرات، لأن القصة كانت واسعة عليّ. من مرآة الطرقة أطلت لي صورة بهندام مشعث لشخصية

ذات مكياج ملطخ، لم تربط حتى مريلة المطبخ بإحكام. أخرجت لباس الجري القديم المريح من دولابي، وارتديته واتجهت إلى المطبخ.

فليتعفنا في مقعديهما! لن أتفقد إن كانا لا يزالا موجودين. ربما حملتهما الرياح بعيدا. أما هنا في 26 شارع سان بيدرو فلم يعد أحد غيري. ثم إننا يوم الأحد العاشرة مساء، وفي الحقيقة هو بالضبط التوقيت الذي يكون أوسكار وبلانكا قد عادا فيه من ف. ف. فغالبا ما كانا ينطلقان عائدين في وقت متأخر.

كنت لأشاهد التلفاز قليلا وأنتظر إلى أن يصل والديّ. بدا لي ذلك أفضل الحلول. على الأرجح أنهما قد علقا في زحمة المرور. الساندويتش والبرتقالة لا يزالان على طاولة المطبخ. وفي تلك الأثناء وصل آتييز أيضا ووقف أسفلها. لا ترميني بنظرات الاتهام تلك، لقد اشتريت الخس من أجلك، رغم أن عليّ أن أقتصد في المصاريف." تدحرجت السلحفاة أسفل الطاولة في المكان الذي لا يزال فيه بضعة جرائد قديمة. فأبي يخلف صفحات الجرائد واقعة في كل مكان. حاولت أن أغريها ببضعة وريقات خضراء رقيقة لتأتي فوق كومة الجرائد لكني لم أنجح.

عادة لا أشاهد التلفزيون كثيرا. فنادرا ما يوجد ما يثير اهتمامي. في الغالب نتفرج على اليوتيوب. صحيح أن والدي يدعيان أنهما غير مهتمين بالتلفزيون، لكن بمجرد أن أفتحه يحضران للفرجة. بالطبع سيعارضان قولي هذا. لكن جهاز التلفزيون الخاص بنا يقبع في مكتبة قديمة لها ضرف تقرقع بشدة بمجرد أن تفتح. وحين أريد أن أشاهد الأفلام أو المسلسلات، فمن المؤكد أن تستدعي الضجة الناجمة أمي أو أبي، فيأتيان ويجلسان إلى جواري على الأريكة، وتصدر عنهما تعليقات تثير أعصابي.

أمضيت وقتا أمام الجهاز، لكني أم أتمكن من التركيز، رغم أنهم كانوا يعرضون فيلم رعب قديم أحبه. عندما خرجت العناكب الضخمة من فوهة البركان، تقلصت معدتي لأني سمعت في رأسي صوت أمي واضحا يقول "يا لها من دمى سيئة!"، لدرجة أني اضطررت أن أحول القناة. وجدت مسلسلا من الرسوم المتحركة كنت أحبه أنا وآنخيل حين كنا صغارا، لكن أيضا لم أكن أريد أن أفكر في آنخيل، أو أن أتذكر أمسيات الآحاد في طفولتنا حين كنا

نرجع من ف. ف. يكسونا العرق والوسخ، نسرع في جر حقائبنا، ثم بسرعة نفتح التلفزيون ونلقي بجسدينا على الأريكة حيث نكون شبه مخدرين من شمس وهواء عطلة نهاية الأسبوع، نريد أن نلحق عرض حلقتين "مازينجر"، نحك أماكن قرص الناموس، ونسمع أمنا وهي تملأ البانيو بالمياه بينما أبي يجر بقية الأمتعة. ظللت أغير القنوات بلا رغبة حقيقية إلى أن وصلت إلى آخر المحطات التي غالبا ما تعرض أفلام رسوم متحركة.

ظهر على الشاشة ستوديو مضاء بأنوار زرقاء، يرتفع فيه كرسي مذهب بأجناب عالية. غطت الأرض سجادة من الوبر الوثير ذات لون لازوردي داكن. لم يكن ثمة إنسان يُرى، لكن ظهر على الحافة السفلية رقم هاتف وعنوان بريد إليكتروني. تلا ذلك ظهور إعلان بحروف كبيرة: "السيدة سميرة، وسيط. اتصالات مضمونة بالعالم الآخر." في الوقت ذاته ومن اللامكان، دوى صوت رجالي: "هل فقدت أنت أيضا إنسانا عزيزا عليك؟ هل تود أن تتواصل معه، من أجل أن توصل لفقيدك رسائل أو تطرح عليه أسئلة؟ استخدم قوى الوسيط المعروف عالميا. السيدة سميرة تساعد. السيدة سميرة تدعم. اتصل الآن أو أرسل رسالة بريد إليكتروني. "

بعد هذا الإعلان دخلت سيدة إلى الصورة وتركت نفسها تغرق في كومة من الوسائد اللامعة. ترتدي روبا مخمليا، أزرق اللون مثل السجادة. شعرها مصبوغ بالأصفر، مهوش ومتموج، بينما أطلت في الكاميرا من الوجه المثقل بالمساحيق عينان بنيتان مكدودتان. "مساء الخير أعزائي. أنا سميرة. أحييكم جميعا، يا من فتحتم التلفزيون لمشاهدة برنامجي اليوم. سنبدأ على الفور، فالمتصلة الأولى تنتظرنا على الخط بالفعل. إنها كونسيبتيون من ملقة. تريد أن تتحدث مع ابنها، مع روبيرتو. كونسيبتيون، أحييكي!" عرضت صورة روبيرتو. كان تقريبا في مثل عمري، يرتدي تيشيرت أزرق فاتح عليه قردة شمبانزي ضاحكة، يبتسم مطبقا شفتيه. أمسكت الريموت كونترول لأغير القناة، لأنني خشيت ما يمكن أن يأتي الآن، إلا أن صوت المتصلة كان قد ملأ الاستوديو فعلا، متكسرا قليلا بفعل شوشرة الخط الهاتفي. كان من السهل سماع الدموع المكتومة في صوتها. "سميرة، يجب أن أتحدث مع ابني روبيرتينو. لابد أن أسأله لم فعل بنا هذا، والده وأنا". تهدج الصوت،

وعلا نشيج السيدة. سميرة التي أصغت بوجه صارم، أكملت، بعد أن أخذت نفسا عميقا، :"كونسيبتيون، لقد انتحر ابنك قبل عدة أسابيع". ارتفع نشيج السيدة إلى أن دخلت في نوبة سعال، يخرج منها ولولة بطيئة: "روبيرتينو، طفلي الحبيب!" "أسموه في الأخبار شعلة الحياة في ملقة! كنا لا نزال معه. أبوه وأنا، ليس لديه حق في فعل ما فعل. لقد فعلنا من أجله كل شئ، لقد أعطيناه كل الحب، كل يوم. ماذا كان يتعين علينا أن نفعل؟ لقد كان حائرا جدا، يائسا جدا! لم يقبل به أحد في هذا البلد الملعون! رغم أنه حصل على درجات عالية دائما، دائما وفقط تقدير ممتاز، ورغم ذلك..." قاطعتها سميرة: "كونسيبتيون، نحن جميعا نشعر بمشاعرك. إنه أمر فظيع، أن تفقد ابنك، وبهذه الطريقة. من فضلك أخبريني الآن: ماذا تريدين أن تقولي لابنك؟". تمخطت السيدة التي على الخط الهاتفي، وهمهمت باعتذار ثم تحدثت بعدها بصوت أكثر ثباتا: "لقد احتجت وقتا طويلا قبل أن أتشجع وأتصل بحضرتك. لم أعد أستطيع أن أنام ليلا، زوجي في المستشفى، لقد أثرت المسألة على صحته كثيرا. أرجوكي، أسألي روبيرتو فقط إن كانت حاله طيبه حيثما هو الآن. وأخبريه أني أحبه أكثر من كل شئ." توقفت قليلا، وتمخطت ثم عادت من جديد: "وأسأليه إن كان الأمر يستحق. أن يلقي بحياته وشبابه. وأخبريه أنه قتل أمه وأباه، وجدوده وأخاه الأصغر! أخبريه أنه ثمة أناس كثيرون جدا حالهم أسوأ من حاله! فالبؤس منتشر في كل بقاع العالم! اللاجؤون! أبواي كانت حالهما أسوأ كثيرا بعد الحرب! ونادرا ما كانا يعرفان من أين سيجلبان الطعام لنا نحن أطفالهم. لم يتركا الهم يفترسهما! كان يستطيع أن يهاجر إلى بوينس أيرس مثل ابنة خاله سوزانه، فهذا ما فعلته هي أيضا.."

لم أستطع احتمال المزيد وأغلقت الجهاز. الآن فقط بدأت ألاحظ كيف أني كنت أتنفس بصعوبة. كانت يداي ترتعشان وحين نهضت من أجل أن أذهب إلى الحمام اضطررت أن أتساند على ظهر الأريكة. كنت أشعر بالغثيان والدوار. في الحمام استفرغت، لكن كل ما كنت أخنقه كان ممتزجا بعصارات المرارة. هل يتوجب عليّ أن أفتح النافذة مرة أخرى؟ وأن أتصل بالسيدة سميرة؟ أو أكتب لها رسالة بريد إليكتروني؟ يمكن أن أبقى مجهلة الاسم، فأمي وأبي سيستطيعان التعرف على صوتي في العالم الآخر. وكنت أعرف على وجه التحديد، كيف يمكن أن أبدأ الحوار: "أوسكار وبلانكا، ما تقولان للدفاع عن نفسيكما؟

أن تغادراني هكذا في وضحة النهار؟ في منتصف الإجازة، ليس هذا فحسب، بل يغادر كلاكما في توقيت واحد؟ كنتما منذ البداية أكبر سنا من أن تحضرا المزيد من الأطفال، ورغم ذلك تركتما نفسيكما للظروف. ومن شرب المقلب؟ ماذا يمكن لي أن أفعل الآن بدونكما؟ الأمر ببساطة غير عادل. أعطياني بضعة نصائح، كما هي عادتكما. أرجو التكرم بالإجابة حين أتحدث معكما!"

ربما خرج صوت مقرقر من بطن سميرة. سيتحول بعد وقت من السعال والتجشؤ إلى صوت له نبرة المثقفين مثل صوت أبي.

"أنيتا، كنزنا الصغير، صدقيني لم نخطط لوقوع ما حدث، لقد كان كل ما أردته في هذا الصباح هو أن أسافر مع أمك ومعك إلى ف. ف. وأن نغني سويا في السيارة. أن نفتح بطيخة، وأن نشاهد غروب الشمس على السييرا."

في الغالب كانت أمي ستقاطعه.

"أوسكار، حبيبي، هذا الكلام غير مناسب الآن. أنيتا عندها حق، فهي في حاجة لبعض النصائح العملية. اتصلي بأخيك يا حلوتي، وبالوما. أنت لست بمفردك. لا يجب أن تخجلي من طلب المساعدة. كل الأمور ستصير على ما يرام. آنخيل وأنت، أنتما سويا تقدران على اجتياز الأمر معا. وأنت عندك أصدقاء كثيرون. ما أخبار لا بلاغا؟"

ستكون هذه هي اللحظة المناسبة لأهاجمها وأسألها بوقاحة:" وما حكاية ر.؟ كيف يتعين أن أتعامل مع هذا الموضوع؟ هل حكيت لبابا عنه؟ في الواقع بوسعك الآن أن تفعلي ذلك. إذ ماذا يمكن أن يحدث لك أكثر من هذا، فأنت بالفعل ميتة؟"

وعلى حد علمي بأمي فهي لن تفعل شيئا سوى أن تهز رأسها فتتداخل الخصلات المصبوغة الشقراء في منتصف رأسها بعضها بالبعض. "آنا ماريا، هذه مسألة لا تخصك،

وإنما أمر بين والدك وبيني. لا تقلقي بشأننا بعد اليوم. وإنما راعي شؤونك أنت. ستقومين بكل شئ على النحو الصحيح. أنا وبابا نحبك كثيرا، يا صغيرتي."

جلست على التواليت لأتبول، بينما صوت ماما يرن في أذني مثل طنين عذب. خانتني قدماي وأنا أغسل يدي فجلست على السجادة الوبرية المنقطة بالأصفر. ضغطت بيدي على بطني لأكتم القرقرة وتنفست بسرعة، أدرت رأسي للجنب لأني لم أستطع تحمل الضوء الثاقب المنبعث من اسطوانة النيون فوق المرآة. إلا أني لم أغلق عينيّ، فقد اجتاحني فجأة ذعر من الظلام الذي سيسود حين أطبق جفوني. ربما عليّ أنا أيضا أن أموت حين أنام الآن. شعرت وأنا متكورة على السجادة بوحدتي بصورة أفظع من كل الساعات السابقة. كنت وحيدة تماما في هذه الغرفة ذات الجدران المغطاة بالقرميد الأصفر، في هذه الشقة، في هذه المدينة، ولأول مرة بدا لي أنه لن يمكنني أن أتحمل المسألة.

وبينما أنا هكذا مستلقية على الأرضية، وأحرك رأسي يمينا ويسارا من الحيرة ، اكتشفت شعرة لأمي على البلاط. كانت طويلة وقوية وهي تنزلق تجاهي، فما كان مني إلا أن أمسكت بها. كان واضحا أنها نبتت في رأس ماما وليس في رأسي أنا. لأن شعري يميل أن يكون ضعيفا، ولم يكن ليحب قط أن يزحف نحوي على هذه الصورة المشحونة بالطاقة. لففتها وثبتها على إصبع السبابة الذي بدأ من فوره في النبض وتغير لونه إلى الأزرق، في كل الأماكن التي بقيت فيها مساحة من اللحم ما بين لفات الشعرة الداكنة. لم يكن يؤلمني على وجه خاص، لكني اتخذت من هذا الألم الباعث على الضحك مناسبة أن أضغط وجهي بين وبر السجادة وأن أنتحب بصوت منخفض. لأن أمي لن تأتي الآن لكي تطيب خاطري رغم أن حالتي في غاية السوء. لأنها لا تقف خلفي تمسد رقبتي مثل السابق حين أكون في حالة سيئة وأتعلق فوق الحوض. لأنها لم تسألني إن كنت أريد شايا ولأن يديها الباردتين لم تربتا على كتفي لتأخذني وهي تدندن بصوت خفيض عبر الشقة إلى أن توصلني إلى فراشي. كانت ماما دائما ما تدندن نغمة أغنية قديمة، حين كانت تفعل شيئا يقتلها مللا لأجل خاطري أو خاطر آنخيل: ألعاب المونوبولي أو السلم والثعبان، تلبيس العرائس، خبز الكيك، تمشيط الشعر.

بعد مرور بعض الوقت تمكنت من النهوض، جرجرت نفسي ثانية نحو التلفزيون، وبحثت عن السيدة سميرة. كان حنيني ببساطة كبيرا جدا، فالأفضل إذن مشاهدة هذا السخف على عدم فعل شئ على الإطلاق. غير أني لم أجد البرنامج ثانية. على نفس القناة كان رجلان مسنان يمتدحان ملاءات السرير، وأجهزة المطبخ والطاسات. كان أحدهما متقدما في السن وأعجف، والآخر قصير ومكتنز، ومن أجل أن يكتمل المشهد كان أحدهما ينادي الآخر دون كيخوته، والثاني يدعوه سانشو بانزا.

ترجمة نيرمين الشرقاوي